برنامج شروح

متون طالب العلم

تحت إشراف الشيخ

د. عبد المحسن بن محمد القاسم
إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف

شرح منظومة أبي إسحاق الإلبِيري

مقرر الأسبوع الأول

من البداية إلى قول المصنِّف رحمه الله: (إِذَا البَاقِي حُرِمْتَا).

المقدِّمة

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمد للَّه ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

هذه منظومةٌ عظيمةٌ مفيدةٌ لأبي إسحاق الإِلْبِيرِيِّ رحمه الله(١)، جامعةٌ شاملةٌ، مليئةٌ بالحِكَم والمواعظ والنصائح، عدد أبياتها مئة واثنا عشر (١١٢) بيتاً.

وقد أكثرَ أهل العِلم قديماً من حِفظها؛ لِما فيها من ترقيق القلب، والزهد، وحفظ الوقت، والحرص على طلب العِلم والتشجيع عليه، وكانوا كذلك يُحفِّظونها طلَّابهم؛ لترفع همَّتَهم إلى طلب العِلم والتزوُّد منه.

(١) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعيد التُّجيبيُّ الإلبِيري، توفي سنة (٤٦٠هـ). الأعلام للزركلي (١/ ٧٣).

والناظم رحمه الله يقول لك في هذه الأبيات: يجب عليك أن تغتنم أوقاتك، وأن تحرص عليها، وأن لا يفوتَك منها شيء، واحذر الرُّكُون إلى الدنيا؛ فإنها قصيرة، والعقلاء لا يَرْكَنُون إليها.

ويقول لك: إنَّ مُضيَّ الأيام واللَّيالي يُضعف جسدك، وقِوَاك، فاغتنمها ما دمتَ في شبابك؛ فقد تُنزَع منك الروح وأنت في عِزِّ الشباب.

١- تَفُتُّ فُؤَادَكَ الأَيَّامُ فَتَّا	وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا
٢- وَتَدْعُوكَ المَنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ	أَلَا يَا صَاحِ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا
٣- أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْساً ذَاتَ غَدْرٍ	أَبَتَّ طَلَاقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا
٤- تَنَامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ فِي غَطِيطٍ	بِهَا حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا
٥- فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى	مَتَى لَا تَرْعَوِي عَنْهَا وَحَتَّى

قال رحمه الله: (تَفُتُّ فُؤَادَكَ) أي: تُضعِف قلبك، والأصل في الفَتِّ: الكَسْر[1].

وقال: (تَفُتُّ فُؤَادَكَ) ولم يقل «جسمك»؛ حتى يبيِّن أن مرور الأيام واللَّيالي لا تُضعِف فقط جسدك، بل حتى القلب وما ينبض فيه تُهلكه.

(الأَيَّامُ فَتَّا) كأنه يقول لك: الأيام تَدُكُّ في جسدك دَكّاً وأنت ما تشعر، وتُضعِفُهُ وتُكَسِّرُهُ.

(وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتاً) (السَّاعَاتُ) أي: الأيام، تَنحت وتشق من جسدك شقّاً حتَّى تُضعِفه فتموت، فكأنه يقول: تَدَارَك الوقت؛ لأن كلَّ يوم يمضي فإنَّ جسمك ينعصِر، ويَضعُف، ويَتآكَل.

---

(١) الصحاح للجوهري (١/ ٢٥٩).

(وَتَدْعُوكَ المَنُون) يعني: ملك الموت؛ أي: أنَّ الموت يدعوك في كلِّ ساعةٍ وكلِّ لحظةٍ (دُعَاءَ صِدْقٍ) يعني: أمرٌ حقٌّ وواقع.

(أَلَا يَا صَاحِ) هذا ترخيم[١]؛ يعني: ألا يا صاحبي، مثل: فاطمة تُرخَّم ويقال: فاطِم، ومثل: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، مُرخَّمَة، أصلها: يا ابن أمِّي.

فهنا قال: (أَلَا يَا صَاحِ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا) يعني: ملَك الموت يقول: أنا أريدُك أنت لا أريدُ غيرك، فكأنَّ الموت قريبٌ منك ومنطلقٌ إليك، ويقول: أنا أريدُك أنت ما أريد غيرك، فالنَّاظم رحمه الله يقول: اغتنم وقتك فإن الموت منطلق إليك لم ينطلق إلى غيرك.

ثم ذكر أنَّ في هذه الدنيا أكياس[٢]، وعقلاء، لم يركنوا للدنيا؛ وإنما أقبلوا على تَعلُّم العِلم والدار الآخرة؛ فقال معاتِباً لك:

---

(١) الترخيم: هو إسقاط شيء من آخر الاسم في النداء. مقاييس اللّغة لابن فارس (٢/ ٥٠١).

(٢) مفردها الكَيِّس وهو العاقل. لسان العرب لابن منظور (٦/ ٢٠١).

(**أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْساً ذَاتَ غَدْرٍ**) يعني: الدنيا، (**عِرْساً**) العروس، (**ذَاتَ غَدْرٍ**) يعني: غير وَفِيَّةٍ، فالغَدْر: عدم الوفاء[1].

(**أَبَتَّ طَلَاقَهَا**) يعني: قطعَها قطعاً؛ أي: الطَّلاق المَبْتُوت بالثَّلاث، (**الأَكْيَاسُ**) العقلاء؛ يعني: العقلاء أعرضوا عن هذه المرأة الموصوفة بالغدر؛ لأن الغدر عيبٌ فيها، فكذلك الدنيا مثل تلك العروس المُعرَض عنها؛ لذلك قال: (**ذَاتَ غَدْرٍ**) أي: لا وفاء فيها، فهم أعرضوا عن تلك المرأة لهذه الصفة، وكذلك العقلاء أعرضوا عن الدنيا لغدرها وزهدوا فيها، وأقبلوا على الدار الآخرة.

وشبَّه الدنيا بتلك المرأة المطلَّقة، مثل ما قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «آه! يا دنيا لقد طلَّقتُك ثلاثاً»[2].

---

(١) الصحاح للجوهري (٢/ ٧٦٦).

(٢) ذكره أبو نعيم الأصبهاني في الحلية، رقم (١/ ٨٥)، ولفظه: «إليَّ تغرَّرت، إليَّ تشوَّفت، هيهات هيهات، غُرِّي غيري، قد بتتُّك ثلاثاً، فعمرك قصيرٌ، ومجلسك حقيرٌ، وخطرك يسيرٌ، آهٍ آهٍ من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق».

ثم يحثُّك الناظم رحمه الله على اغتنام أوقاتك وعدم إهدار شيءٍ منها، وأن الغافل كالنائم فلا يعلم ما يقع له إلا إذا استيقظ، وقد لا يستيقظ ذلك الرجل النائم إلا إذا هلك، كأنه يعاتِبك، لذا قال: (تَنَامُ الدَّهْرَ) يعني: عمرك، فالدهر هنا المراد به: العمر، (وَيْحَكَ) هذا عتاب، (فِي غَطِيطٍ بِهَا) يعني: سُبَات طويل وأنت نائم.

(حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا) مثل ما قال اللَّه: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢]، يعني: كأنه يقول: احذر، انتبه، واستيقظ، واطلب العِلم، وأكثِر من العبادة قبل أن تموت.

(حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا) لكن انتباهك بعد الموت ما ينفعك، مثل ما قال اللَّه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ ما يمكن، ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

ثم قال: (فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ) يعني: فكم ذا أنت مخدوعٌ بهذه الدنيا، وتَتَلَهَّف نفسُك للشهوات، والمَلَذَّات، والمُتَع، وتُعرِض عن طلب العِلم، وعن قيام اللَّيل، وتلاوة القرآن، فأنت قد خُدِعْتَ في هذه

الدنيا بإقبالك عليها، (وَحَتَّى) تستمر على هذا، (مَتَى لَا تَرْعَوِي) وترجع عن غَيِّك واتِّباع شهواتك؟ (وَحَتَّى) إلى متى؟! حتى إذا تموت؟!

٦ - «أَبَا بَكْرٍ» دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ إِنْ عَقَلْتَا
٧ - إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَاماً مُطَاعاً إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا
٨ - وَيَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غَشَاهَا وَيَهْدِيكَ السَّبِيلَ إِذَا ضَلَلْتَا
٩ - وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجاً وَيَكْسُوكَ الجَمَالَ إِذَا اغْتَرَبْتَا
١٠ - يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَيّاً وَيَبْقَى ذُخْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا

وضع الناظم رحمه الله شخصية وهمية، كأنَّ الأب يحاور ابنه، وسمى ابنه أبا بكر، أو كأنَّ الشيخ يحاور تلميذه وينصح تلميذه وسمَّى هذا التلميذ أبا بكر؛ لذلك يذكر رحمه الله كلمة «أبا بكر» في أكثر من موطن، فكأنه ينصح التلميذ، أو الأب ينصح ابنه، يقول: («أَبَا بَكْرٍ» دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا) (**دَعَوْتُك**) إلى العِلم وللتزوُّد منه، (**لَوْ أَجَبْتَا**) لفُزتَ.

(**إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ**) ونصيبُك، ورفعتُك، (**لَوْ عَقَلْتَا**) لو عقلتَ أهمية العِلم، وما دعوتُك إليه؛ لسارعْتَ وبادرتَ إلى طلبه، وحفْظ المتون.

لماذا يدعوه؟ وإلى أيِّ شيءٍ يدعوه؟

قال: (**إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَاماً مُطَاعاً**) يريد بذلك: أن يَشحَذ همتَك إلى طلب العِلم، ولا يكون قصد الشخص بذلك أن يتصدَّر في المجالس أو أن يطاع بأوامره ونواهيه؛ وإنما يريد أن يقول لك معنى

الآية: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١] أي: كأنه يقول لك: في العِلم رفعةٌ ومكانةٌ وشرفٌ عظيم لك في الدنيا وفي الآخرة.

قال: (**إِمَاماً مُطَاعاً**) يُطيعك الناس بما تُفتيهم في كتاب اللَّه وسُنَّة رسوله عليه الصلاة والسلام.

(**إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا**) إذا قلتَ لهم هذا محرَّمٌ سَمعوا لك؛ لأنك تخبرهم بميراث النبوة، وإذا قلتَ لهم هذا واجبٌ سمعوا لك؛ لأنك تخبرهم بما أَتَى به الوحي.

هذا **الأمر الأوَّل**: يكون لك مكانةٌ عند الناس وشَرَفٌ.

والأمر الثاني: يُصلِح من حالك؛ لذا قال: (**وَيَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غَشَاهَا**) (**يَجْلُو**) أي: يكشف وينظف[1]، (**مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غَشَاهَا**) أي: ما يغطيها كالأوساخ[2]؛ يعني: تُبصِر الحق ليس بينك وبينه غبار، فكأنه ليس عليك غشاوة؛ وإنما بصرٌ ثاقبٌ إلى النصوص.

---

(١) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ١٥٠).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٥/ ١٢٦).

(وَيَهْدِيكَ السَّبِيلَ إِذَا ضَلَلْتَا) يبيِّن لك الطريق الحق، فما تَعرف طريق الحق إلا بالعِلم، ولا ترتفع إلى المنزلة العالية وتصل إلى نور اللَّه إلا بالعِلم.

ثم قال: (وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجاً) أي: أيضاً لك مكانة عظيمة إذا دخلتَ في مجتمع الناس.

(وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ) النادِي يعني: مكان تجمُّع الناس[1]، مثل ما قال اللَّه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق:١٧]، **(تَاجاً)** أي: تاج العِلم.

(وَيَكْسُوكَ الجَمَالَ إِذَا اغْتَرَبْتَا) أي: لو كانت ملابسك مُمَزَّقَةً، أو مُتَّسِخَة، أو ما عندك ثيابٌ لفقرٍ ونحو ذلك؛ فأنت مكسيٌّ بما هو أعظم من لباس الحرير، وما هو أعظم من أفخم اللَّباس، وهو: لباس العِلم المُزَيَّن بالتقوى؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأعراف:٢٦].

ثم يذكر مُظهِراً شَرَفَ العلم، وأنه ينفعك في حياتك وينفعك بعد مماتك؛ في حياتك: تنتفع منه فتعبد اللَّه كما أراد سبحانه، وتُعَلِّم

(١) لسان العرب لابن منظور (١٥/ ٣١٥).

الآخرين ما جاءت به الشريعة، وتنصح التائهين بما علَّمك اللَّه عز وجل به من الوحي مما أخذتَه من الكتاب والسُّنَّة وهكذا، فنفعُهُ ينالُك؛ ففي الدنيا تنال منه النفع العظيم بالأجور العظيمة المتتابعة؛ لذلك قال: (يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَيّاً) وإذا متَّ: قال: (وَيَبْقَى ذِكْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا) يعني: إذا متَّ، وذهبتَ من هذه الدنيا.

وانظر إلى حال العلماء السابقين كأنهم أحياءٌ، تقول: قال الإمام البخاري، قال مسلم؛ وكأنهم أحياء معنا، ما الذي أحياهم؟ هل مالهم؟ لا، هل أولادهم؟ لا، فشيخ الإسلام ما عنده أولاد، وماتت أُمُّه وهو صغير، وما عنده مال، وما عنده بيت؛ يسكن في المسجد، فما الذي أعلاهم؟ العِلم؛ لذلك قال الناظم: (وَيَبْقَى ذِكْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا).

١١ - هُوَ العَضْبُ المُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو　　تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ ضَرَبْتَا

١٢ - وَكَنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصّاً　　خَفِيفُ الحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

١٣ - يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْهُ　　وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفّاً شَدَدْتَا

يُبَيِّن رحمه الله لك أن الذي معك شيء عظيم قوي؛ فقال: (هُوَ العَضْبُ المُهَنَّد) وهو السيف الصَّقِيل القوي[1]، (لَيْسَ يَنْبُو) يعني: لا يَضعُف، أو لا يتردَّد في قطع ما أرادَ قطعَه، بل يقطعُه، فتقول: ما ذهبتَ إليه هذا حرامٌ والدليل كذا؛ تنتهي المسألة، وتقول: يجوز والدليل كذا؛ تنتهي المسألة، فمعك شيء قوي ونعمة كبيرة من اللَّه عز وجل يجب أن تشكره عليها بالعمل بها.

(تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ ضَرَبْتَا) المَقَاتِل يعني: الأعضاء التي إذا أُصِيبَت تَقتل[2]، فكأنك بالسيف تقتل هذا الرجل مع مَقَاتِله؛ مع بطنه، مع أماكن الأعضاء التناسلية؛ تقتله مباشرة، فكذا العِلم يقتل

(١) الصحاح للجوهري (١/ ٦٠٩).

(٢) الصحاح للجوهري (٥/ ١٧٩٧).

أهل الباطل مباشرةً ويزهق أهل الباطل، والعِلم يرفع أهل الحق، وكم نحن محتاجين إلى أهل العِلم ليُبَيِّنوا للناس أحكام الشريعة.

ثم بعد ذلك ذكر لك البيت الذي يليه وهو أشبه ما يكون باللُّغز يُطرَح على الناس، قال: (وكَنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصّاً) لأن العِلم في عقلك، فاللِّص لا يستطيع أن يَصل إلى ما في عقلك ويأخذَه، ولو استطاع أن يَصل إلى رأسك ووصل إلى عقلك وفتحَه؛ ما يستطيع؛ فالعلم ليس محسوساً حتى يسرقَه؛ لذلك قال: (**وكَنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصّاً**).

قال: (خَفِيفُ الحَمْلِ) أي: أنت تحمل كنزاً كبيراً من العلوم والأحاديث والمتون، ومع ذلك وأنت تسير ليس فرق بينك وبين الرجل الذي يسير جنبك، لكن أنت تحمل شيئاً كبيراً لكنه شيء معنوي، وهذا الشيء المعنوي محبوبٌ عند اللَّه عز وجل كثيراً.

(يُوجَدُ حَيْثُ كُنتَا) ففي المسجد موجود، وفي البيت موجود، وفي الشارع موجود، وفي غرفة النوم موجود، وفي المجلس موجود، وفي العمل موجود، أما صاحب المال لو تقول له: أعطني عشرة آلافٍ قرضاً؛ يقول: ليس عندي الآن، إذا ذهبتُ البنك أسحب وأعطيك، ولو قلتَ لمُزَارِع: أريد كيلو من التفاح؛ يقول: ليس عندي الآن، أذهب

للمزرعة وأعطيك، أما صاحب العِلم: في اللَّيل وفي النهار، في السفر والحضر، معه كنزه؛ لذلك قال: **(يُوجَدُ حَيْثُ كُنتَا)**.

ولا يمكن أن يُتصوَّر أنَّ شيئاً يوجد مع الإنسان في كل أحواله سوى العِلم، فالمال ما يتواجد معك بكل أحوالك، والأولاد كذلك ما يتواجدون معك بكل أحوالك؛ لذلك أَنَاجِيل هذه الأمَّة في صدورها، واللَّه يقول: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

فليفرح طالب العلم بالعِلم، وليشرف به، وليستمر على طلب العِلم، ويُخلِص النية فيه للَّه عز وجل، وليُرِدْ بذلك رفع الجهل عن نفْسه، وتعليم الآخرين إذا اللَّه أعطاه رسوخاً في العلم وقوةً فيه.

ثم قال: **(يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْهُ)** هذا من فضائل هذا العِلم؛ أنك إذا بذلتَه يزيد، يعني: إذا علَّمتَه للآخرين؛ بإذن اللَّه يُبارَك في هذا العِلم؛ فهو كالروض[١] إن نزل عليه الغَيْث - وهو التعليم - زاد.

---

(١) أي: الأرض ذات الخضرة. لسان العرب لابن منظور (٧/ ١٦٢).

ويزيد بسبب بركة هذا الوحي، اللَّه يقول: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، فما تأخذ منه هو معينُك إلى النور، وهذا الشيء المبارَك هو كتاب اللَّه وسُنَّة النبي عليه الصلاة والسلام؛ لذلك يُبارِك اللَّه فيه في العطاء، اللَّه يقول: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ لا بد أن يمشي به، ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهكذا الضوء لا ينير إلا إذ جُعل في مساحةٍ، أما لو جُعل الضوء في علبةٍ ما أنار، لكن إذا أخرجته من العلبة أنار؛ وهكذا العِلم ينبغي للشخص أن يَبُثَّه عند أهله وجيرانه وأصحابه وأقاربه ونحو ذلك ممن يقدر عليه بالحكمة والتُّؤَدَة.

قال: **(وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفّاً شَدَدْتَا)** يعني: ينقص إذا لم تُعَلِّمه غيرك، لذلك يكثر طلبة العِلم في زمن التعلُّم، لكن يَقِلُّون في العطاء، لماذا؟ لأنهم لا يُعلِّمون، فإذا الشخص لا يُعلِّم الآخر ينسى العِلم، ويتضاءل عنده العِلم، ويقل عنده اهتمامه بالعِلم وتعظيمه في قلبه.

والذي يَبخل في تعليم العِلم؛ باتفاق أهل العِلم أنه أشد ذمّاً من البخيل في العطاء بالمال للفقراء، والدليل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾، قال: ﴿وَبَيَّنُوا﴾ أي: عَلَّموا؛ ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

لهذا إذا علَّم طالب العِلم ارتفعت منزلته، وإذا لم يُعَلِّم تنخفض منزلته انخفاضاً عالياً، بل عليه وعيد شديد؛ لهذا القاعدة في الإسلام: «أن ما جاء فيه فضلٌ كبيرٌ؛ كان في التفريط فيه عقوبة شديدة»؛ ومن ذلك العلم، فإذا علَّمتَ؛ ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وإذا كتمتَ؛ ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

فينبغي لطالب العِلم أن يُعلِّم، بقدر ما يمكنه، وينصح، ويُرشِد؛ اللَّه يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ [فصلت: ٣٣].

١٤ - فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْماً ... لَآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا

١٥ - وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوىً مُطَاعٌ ... وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا

١٦ - وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوْضٍ ... وَلَا خِدْرٌ بِرَبْرَبِهِ كَلِفْتَا

قال رحمه الله: (فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْماً) أي: فلو ذقتَ حلا العِلم وطعمه؛ من الإيمان، والعمل الصالح، ونفع الآخرين، واهتداء الآخرين بك؛ (لَآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدتَّا) أي: آثرتَ التعلم على الدنيا، واجتهدتَ في بَثِّ هذا العِلم وتعليم الآخرين.

يعني كأنه يقول لك: يا طالب العِلم! اجتهد في تحصيل العِلم، وبإذن اللَّه سوف تجد لذة العِلم، وإذا وجدتَ لذة العِلم؛ سوف تجتهد في العطاء، والبذل، ونفع الآخرين، فينبغي لطالب العلم أن يسعى لذلك ولا يتوقف.

وكذا إذا ذقتَ من طعمه وعَلَّمتَ الآخرين، قال: (وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوًى مُطَاع)، وكذا (وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا) يعني: بإذن اللَّه ما تَنْفَتِن في الجَرْي واللَّهث خلف جمع حطام الدنيا؛ لأنك مشغولٌ بشيءٍ عظيمٍ، وهو: تحصيل العِلم وتعليم الآخرين.

والإنسان لا يَعلم مغبَّة[1] ذلك ونفْع ذلك - يعني: العِلم - إلا حين الوفاة، لماذا؟ لأنه عبادةٌ عظيمةٌ يكافئه اللَّه عز وجل عليه إذا لَقِيَه، مع تعجيله للفضل والخيرات في هذه الدنيا؛ من الطمأنينة، والأُنس به، وانشراح الصدر، وأن يعبد الشخص ربه على بصيرة كما أمره اللَّه عز وجل.

ثم قال: (وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوْضٍ) يعني: لم يَشغلك جمال الأرض من الخُضْرَة وما فيها من الأزهار والورود.

أي: لو ذقتَ حلاوة العِلم وطعم الإيمان في قلبك بسبب هذا العِلم الذي أعطاكه اللَّه عز وجل؛ لفضَّلتَ المُكْث في المسجد، وحفظ المتون والقرآن على ذلك، ولم يَلْهَك النظر إلى ذلك عن طلب العِلم.

فلو آثَرْتَ التعلُّم ورأيتَ لذَّته وطعْمه؛ لم تشغل نفسك ولم تكلِّفها بالنظر إلى تلك المرأة والخِدْر التي أهديت إليك من زوجه حسناء؛ لذلك قال: (وَلَا خِدْرٌ بِرَبْرَبِهِ كَلِفْتَا) لم تُتْعِب نفسك بالجري خلف

(١) أي: عاقبة. لسان العرب لابن منظور (١/ ٦٣٥).

أولئك الحِسان، ولم يكن ذلك همك؛ لأنك قد ذقتَ حلاوة وطعم العِلم.

١٧- فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ المَعَانِي وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَأَنْ شَرِبْتَا
١٨- فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالجِدِّ فِيهِ فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللَّهُ أَخَذْتَا

قال: (فَقُوتُ الرُّوْحِ) يعني: طعام الروح: (أَرْوَاحُ المَعَانِي) يعني: العلم؛ الكتاب والسُّنَّة وحفظ المتون وغير ذلك.

(وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَأَنْ شَرِبْتَا) يعني: إذا أردتَ حقيقةً جسدك يمتلئ قوةً ويمتلئ نصاعةً ويمتلئ جمالاً؛ فكل ذلك بالعِلم.

يعني: أنَّ الصدر لا يُشرح بسبب الأكل والشرب؛ وإنما الذي يَشْرَح الصدر، ويُنَوِّر القلب، ويُحَسِّن الخلق هو الإيمان باللَّه وطلب العِلم؛ لذلك قال لك: (فَوَاظِبْهُ) يعني: أنه هو قُوتُك وقُوَّتك وجمالك، (وَخُذْ بِالجِدِّ فِيهِ) يعني: اصبر عليه واستمر على الحفظ والفهم والحرص فيه.

(فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللَّهُ أَخَذْتَا) أي: فإن أعطاك اللَّه العِلم خذ به ولا تُفْلِتْه في الدنيا؛ لتنتفع به في الدنيا والآخرة، فلا تبغي بدلاً ولا تبغي تحويلاً عن العِلم، فلا تشغلك الدنيا ولا يشغلك الهوى المُطَاع.

فلو عرفت العِلم حقيقةً لم تُطِع هواك، ولم تنشغل بزينة الدنيا، ولم تنشغل بالخُضْرَة والمزارع، ولم تنشغل بالنظر إلى المُرْدَان[1]، والإكثار من النساء، ولم تنشغل بالأكل والشرب؛ وإنما الذي ينفعك هو طلب العلم.

(١) جمع أمرد وهو: الشاب الذي لم تبدُ لحيته بعد. تاج العروس للزبيدي (٩/١٦٦).

١٩-وَإِنْ أُوتِيتَ فِيهِ طُولَ بَاعٍ	وَقَالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ سَبَقْتَا
٢٠-فَلَا تَأْمَنْ سُؤَالَ اللَّهِ عَنْهُ	بِتَوْبِيخٍ عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَا
٢١-فَرَأْسُ العِلْمِ تَقْوَى اللَّهِ حَقّاً	وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ لَقَدْ رَأَسْتَا

قال رحمه الله: (وَإِنْ أُوتِيتَ فِيهِ طُولَ بَاعٍ) يعني: إذا وهبك اللَّه من العِلم عِلماً راسخاً وكثيراً، (وَقَالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ سَبَقْتَا) أي: أثنى عليك الناس، وقالوا لقد أوتيت عِلماً كثيراً؛ لا تفرح، بل هذا يحثُّك على التواضع والخشية والخوف من اللَّه؛ لأنَّه كل ما ازدادت مرتبة الشخص عِلماً؛ ازداد خوفه من اللَّه؛ هذا هو الأصل، اللَّه عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فلمَّا زاد عِلمك وأثنى عليك الناس؛ يجب أن يزداد خوفك؛ لأنك سوف تحاسب؛ لذا قال:

(فَلَا تَأْمَنْ سُؤَالَ اللَّهِ عَنْهُ بِتَوْبِيخٍ عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَا)

ثم قال: (فَرَأْسُ العِلْمِ تَقْوَى اللَّهِ حَقّاً) يعني: أن الأصل في العِلم هو تقوى اللَّه، وقمة العلم، وأعلاه، وخلاصته، وثمرته، والمقصود به: هو تقوى اللَّه.

(وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ لَقَدْ رَأَسْتَا) فالعِلم ليس بأن يقال: عنده عِلم؛ وإنما العِلم بأن يقال: ذلك هو الرجل العامل بعِلمه، فيَجمع بين المَحْمَدَتَيْن؛ عِلم وعملٌ، اللَّه يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [البروج: ١١]، وقال: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٢-٣].

٢٢ - وَضَافِي ثَوْبِكَ الإِحْسَانُ لَا أَنْ ... تُرَى ثَوْبَ الإِسَاءَةِ قَدْ لَبِسْتَا

٢٣ - إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ العِلْمُ خَيْراً ... فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا

٢٤ - وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ ... فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا

لمَّا بيَّن لك الناظم رحمه الله فضل العلم وعُلُوَّه، وأن رأس العلم هو تقوى اللَّه ومخافته، كأنه الآن في هذه الأبيات بدأ يعاتب طالب العِلم الذي يفعل بعض المعاصي والسيئات، فقال: (وَضَافِي ثَوْبِكَ الإِحْسَانُ) (ضَافِي) أي: سابغٌ ووافي[1]؛ يعني: أسبغُ ثوبٍ تلبسه هو تقوى اللَّه والطاعة، والإحسان لنفسك، ويَصل إلى المرتبة العالية وهي مرتبة الإحسان فوق مرتبة الإيمان.

قال: (لَا أَنْ تُرَى ثَوْبَ الإِسَاءَةِ قَدْ لَبِسْتَا) أي: لا أن تَغْتَرِف بعض السيئات.

ثم قال: (إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ العِلْمُ خَيْراً) يعني: إذا لم يَصُدُّك العِلم عن فعل هذه السيئات؛ (فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا) أي: أن فعل السيئة من

(١) الصحاح للجوهري (٦/ ٢٤٠٩) (٤/ ١٣٢١).

الجاهل خيرٌ من فعْلها من طالب العِلم، فأين العلم الذي أوتيته وفعلت هذه السيئات؟

(وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ) يعني: إذا سَوَّل لك الشيطان بأن تفعل وتَتَأَوَّل القصور في ترك الواجب، أو تفعل بعض السيئات تأويلاً من الشيطان لك؛ (فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا) فهذا هو الفَهم الباطل، لذلك قال الإمام أحمد: «وما أفسد هذه الأمَّة إلا التأويل»[1]، فالشخص يُؤَوِّل لنفسه، ويتتبَّع الرُّخَص، ويتساهل في بعض ما نهاه اللَّه عز وجل عنه، أو يتقَاعَس عما أمره اللَّه عز وجل به تتبُّعاً للرُّخَص أو تكاسلاً ونحو ذلك؛ لذلك يقول: (**فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا**).

فينبغي لطالب العلم أن لا يكون مقصِّراً، وأن يكون قدوةً صالحة في نفْسه، وفي مجتمعه، وفي أقاربه، وفي زملائه، ونحو ذلك، وأكثر ما يُؤَثِّر في الناس القدوة الصالحة؛ بل إن تأثيرها أكثر من تأثير النصيحة والمحاضرة والعِلم ونحو ذلك، وكما تعرفون أن بلداناً فُتحت بالأخلاق الحسنة والكلمة الطيبة؛ كالمدينة النبوية فُتحت في عهد

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣/ ٦٣).

النبي صلى الله عليه وسلم بغير السيف، فُتحت بالعِلم، فكان الصحابة يعلِّمون القرآن، فلمَّا أتاها النبي صلى الله عليه وسلم وَجَد الناس يستقبلونه بالإيمان والإسلام.

٢٥- سَتَجْنِي مِنْ ثِمَارِ العَجْزِ جَهْلاً	وَتَصْغُرُ فِي العُيُونِ وَإِنْ كَبِرْتَا
٢٦- وَتُفْقَدُ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ	وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَإِنْ فُقِدْتَا
٢٧- وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ	وَتَغْبِطُهَا إِذَا عَنْهَا شُغِلْتَا
٢٨- لَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا	وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا
٢٩- إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ	قَدِ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَفُلْتَا

في هذه الأبيات يُنَبِّهُك الناظم رحمه الله قبل وقوع ندمٍ قد يحدث عليك في حياتك فتندم نَدَامَةً كبيرة، فهو يقول: أنت الآن في الدنيا انتبه واحذر، فالناس صنفان: صنف يندم وأحذِّرك أن تكون منهم، وصنفٌ يفرح، فالذي يندم الذي لا يطلب العلم، والذي يفرح هو الذي يطلب العلم.

لذلك قال: (سَتَجْنِي مِنْ ثِمَارِ العَجْزِ جَهْلاً) يعني: سَتَجْنِي ثماراً وسيئات وحسرات كثيرة بسبب الجهل، ومن هذه الثمار: قال: (وَتَصْغُرُ فِي العُيُونِ وَإِنْ كَبِرْتَا) إذا كبر سِنُّك؛ نظْرة الناس إليك نظرة احتقار، فهم يعتبرونك جاهلاً، فمن ثمار الجهل: عدم كِبَرِك عند الناس وتعظيمهم قدرك؛ وهذا مما قد يوقع في قلبك حسرةً، علماً بأن الشخص أو طالب العِلم لا ينظر إلى مثل هذه الأمور، لكن يقول: إنَّ

قدْرك في المجتمع قدْر الجاهلين، والمجتمع لا يرحم بنظرته للجاهل.

ومن سيئات وثمار الجهل والحسرات، قال: (وَتُفْقَدُ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ) فحتى وأنت حيٌّ كأنك غير موجود، ولا يقال عنك: قال فلانٌ ولا فعل فلان، ولو متَّ تُفقَد أشد وأشد، فلا أحد يعرفك سوى أولادك ثم تبقى مع الغابرين، وكأنك لم تُخلق، لهذا مثلاً في كل يوم نرى يذهب للمقبرة عشرات الجنائز، فما هي الجنازة التي نفقدها؟ فقط جنازة العالِم، والتي لا نفقدها جنازة غير العالِم.

أما إذا علمتَ، قال: (وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَإِنْ فُقِدْتَا) فحتى وأنت غير موجود سواء فُقدتَ في المجلس، أو فُقِدتَ في هذه الحياة؛ كأنك موجود معنا.

ففي المجالس نقول مثلاً: قال شيخ الإسلام، قال ابن القيم، قال ابن باز وهكذا، كأنهم أحياء، ما الذي أحياهم؟ العِلم؛ لذلك قال: (وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَإِنْ فُقِدْتَا).

فالناظم رحمه الله يقول: أنا أريدك مثل هؤلاء؛ حيٌّ في حياتك، وحيٌّ بعد مماتك، وأخشى عليك من الحسرة أن تكون ميتاً في الحياة ومُندَثِراً ذكْرك بعد الممات.

قال: (وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ) أي: بعد أَمَدٍ طويل، وإذا كبر بك العمر وكان وجودك مثل وجود غيرك؛ حين ذاك تتأسَّف وتتحسَّر، وإن عملتَ بنصيحتي وطلبتَ العلم؛ فسوف يبقى أثرك في الحياة، ويبقى ذكْرك بعد الممات، ذِكْراً وأَثَراً.

فهو رحمه الله ينصحك بطلب العِلم، لهذا لا يبقى ذكرٌ للشخص سوى بالعِلم، وأما بغير العلم فلا يبقى له ذكر، وهذا من آيات اللَّه التي ذكرها في قوله: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١]؛ رفعةً في الدنيا وفي الآخرة، فالمال يرفع الشخص في حياته فقط، أما بعد الممات ما ينفعه، والأولاد يرفعون ذِكْره في الحياة، أما بعد الممات ما يرفعونه؛ فهم يموتون مثله، لكن

العِلم هو الذي يكبر ويحيا، لذلك نصيحة ابن الجوزي رحمه الله[(١)] يقول: «ولا زال العلماء ينصحون بطلب العِلم».

وأنا أنصحك بالعِلم، وحفظ المتون، والقراءة، وعدم إضاعة الأوقات، وعدم اللَّهو، وعدم التكاسل، وعدم الصحبة التي تُوهِنُك عن طلب العِلم، والبعد عن الذي يُوَهِّن من حفظ المتون أو يُضَعِّف من شأنها، فاطلب العلم، واحفظ المتون، واقرأ الكتب، وما يُشكِل عليك اسأل، وجالس أهل العِلم وزُرْهُم في مجالسهم، وفي بيوتهم ونحو ذلك؛ لتكون قريباً من العِلم ومن أهل العِلم؛ حتى ينفع اللَّه بك في الحياة وبعد الممات.

لمَّا ذكر الناظم رحمه الله حثَّه لك على طلب العلم، والتحذير من الجهل، قال: فإن أهملت نصيحتي لك، وتركت العِلم، وَرَكَنْتَ إلى الجهل؛ (لَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا) أي: سوف تَعَضُّ يدك من الندم

---

(١) هو: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبد اللَّه بن حمادي بن الجوزي الحنبلي، وُلد سنة (٥١٠هـ)، وتوفي سنة (٥٩٧هـ). تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٥/ ٢٣٧).

على ترْكِكَ هذه النصيحة؛ لكن: (وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا) ومتى ستندم؟

قال: (إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ قَدِ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ) وأنت بجهلك (قَدْ سَفُلْتَا) فإذا رأيت صحبك قد ارتفعوا بالعِلم لمَّا جَدُّوا واجتهدوا، وحفظوا المتون، وحضروا دروس العِلم، وأنت قد سفُلت بجهلك، وعدم حفظك، وركونك إلى الكسل والدنيا واللَّهو ونحو ذلك؛ حينها تندم.

يعني كأنه يقول: من لم يطلب العِلم سوف يندم، ومن طلب العِلم فسوف يرتفع، وإذا ارتفعتَ؛ فإن أقرانك الذين لم يطلبوا العِلم سيتمنون أنهم كانوا مثلك.

إذاً: احرص على طلب العِلم لتكون أنت المرتفِع، والنبي صلى اللَّه عليه وسلم يقول: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»(١)، وقال: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ القُرْآنَ فَهُوَ

(١) رواه البخاري، كتاب العِلم، باب الاغتباط في العِلم والحكمة، رقم (٧٣)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن،

يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ»(١).

فليفرح طالب العِلم بالعِلم، وليسعد به؛ لأنه يُقَرِّبه إلى اللَّه عز وجل.

ويعلِّمه، وفضل من تعلَّم حكمة من فقه، أو غيره فعمل بها وعلَّمها، رقم (٨١٦)، من حديث عبد اللَّه بن مسعودٍ رضي الله عنه.

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ يَقُولُ: لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا فَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ»، رقم (٧٥٢٩)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن، ويعلِّمه، وفضل من تعلَّم حكمة من فقه، أو غيره فعمل بها وعلَّمها، رقم (٨١٥)، من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما.

٣٠- وَلَا تَحْفِلْ بِمَالِكَ وَالْهُ عَنْهُ فَلَيْسَ المَالُ إِلَّا مَا عَلِمْتَا

٣١- وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مَعْنًى وَلَوْ مُلْكُ العِرَاقِ لَهُ تَأَتَّى

٣٢- سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي نَدِيٍّ وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْماً إِنْ كَتَبْتَا

قال رحمه الله: (وَلَا تَحْفِلْ بِمَالِكَ وَالْهُ عَنْهُ فَلَيْسَ المَالُ إِلَّا مَا عَلِمْتَا)

أي: ولا تُبَالِي بمالك؛ بل الهُ عنه وأعرض عنه، فليس لك من المال إلا ما علمتَا؛ أي: أن المال الحقيقي والكنز الكبير الذي تملكه هو ما طلبته من العِلم.

(وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مَعْنَىً) أي: أنَّ الجاهل حتى لو كثر ماله؛ ما له قيمة بين الناس، فلا ينفعهم، ولا يَرْوِيهم من ظمأٍ ولا يملأ بطونهم من جوعٍ.

(وَلَوْ مُلْكُ العِرَاقِ لَهُ تَأَتَّى) ولو كَثُر ماله وحصل له جميع ما في العراق من أموال لمَّا كانت مليئةً بالأشجار والأنهار والثمار، فلو كنت تملك جميع ملك العراق؛ مما فيه من خيرات - مما ذكره المصنِّف في زمنه -، فليس لك قيمةٌ عند الناس؛ لأنك جاهل، فلا يُشبِع الناس إلا العِلم، فهو الذي يَرْوِيهم، وهو الذي يُنَوِّر بصيرتهم، وهو الذي يهديهم إلى طريق الجَنة.

ثم قال: (سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي نَدِيٍّ) يعني: من تشريف اللَّه عز وجل لك بالعِلم: أنَّ عِلمك سوف ينتشر في المجامع، ومجالس الناس، ومُنْتَدَيَاتِهِم ونحو ذلك، فتشرُف وتَعظُم ليس بالذِّكر؛ الإنسان لا ينظر للدنيا، وإنما تشرُف وتعظم؛ لأنك تكسب ثواباً وإن لم تكن في ذلك المجتمع، فعِلمك نُشِر.

(وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْماً إِنْ كَتَبْتَا) أي: إذا نشرتَ عِلمك؛ فسيأتي يومٌ ويُكتب عنك ما كتبتَه وذلك إذا مت وذهبتَ من الدنيا.

٣٣- وَمَا يُغْنِيكَ تَشْيِيدُ المَبَانِي إِذَا بِالجَهْلِ نَفْسَكَ قَدْ هَدَمْتَا

٣٤- جَعَلْتَ المَالَ فَوْقَ العِلْمِ جَهْلاً لَعَمْرُكَ فِي القَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا

٣٥- وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الوَحْيِ بَوْنٌ سَتَعْلَمُهُ إِذَا «طَهَ» قَرَأْتَا

قال: (وَمَا يُغْنِيكَ تَشْيِيدُ المَبَانِي) يعني: لو كنتَ جاهلاً ماذا تستفيد من هذا المال الذي شيَّدتَه وجمعتَه ولم تستفد منه (إِذَا بِالجَهْلِ نَفْسَكَ قَدْ هَدَمْتَا)؟! فلا يرتفع بناء الشخص وفكره وعقله ومكانته إلا بالعِلم، حتى لو كان عنده ما عنده من المباني العالية.

ثم يقول: إذا أنت آثرتَ وفضَّلتَ المال على العِلم وبَنَيْتَ المباني؛ هذه ما تنفعك، لذا قال: (جَعَلْتَ المَالَ فَوْقَ العِلْمِ جَهْلاً) في التفضيل، (لَعَمْرُكَ فِي القَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا) يعني: هذا ظلم جائرٌ؛ فلا يمكن أن المال يَفضُل بحال من الأحوال على العِلم، وإنَّما العِلم هو الذي يقودُه، والمال هو الذي يتبعه، لذلك أهل التجارة يتَّبعون أهل العِلم، وهم الذين يسألونهم، وهم الذين يتأدبون معهم، فصاحب المال يبحث عن صاحب العِلم، أما صاحب العِلم فهو يبحث عما فيه رضى اللَّه، ويُعلِّم الآخرين، ومَن قَرُب من اللَّه: رفعه اللَّه وأَعَزَّ مكانته، قال

سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١].

ثم بيَّن لك أنه حتى اللَّه عز وجل ذكر بأن العِلم أفضل من المال، لذا قال: (وَبَيْنَهُمَا) يعني: بين العِلم والمال، (بِنَصِّ الوَحْيِ) القران، (بَوْنٌ) فرق كبير، قال: (سَتَعْلَمُهُ إِذَا «طَهَ» قَرَأْتَا) أي: في قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤].

فتَعلم حين ذاك أن اللَّه عز وجل أمر نبيه بأن يتزوَّد من العِلم، ولم يأمره بأن يتزوَّد من المال، واللَّه عز وجل لا يريد لنبيه إلا ما هو خيرٌ، فلو كان المال خيراً من العِلم لأمره اللَّه عز وجل بالتزوُّد منه، ولم يأمر اللَّه عز وجل نبيَّه بالتزوُّد بطلب الزيادة من شيء سوى العِلم.

فدل على أنَّ العِلم أفضل من المال؛ فالعِلم يحرسك، والمال أنت تحرسه، والمال يجلب لك الهم، والعِلم يأتي لك بالطمأنينة، والمال أحياناً يُذِلُّك عند الآخرين، والعِلم يرفعك؛ فبينهما فرق.

٣٦- لَئِنْ رَفَعَ الغَنِيُّ لِوَاءَ مَالٍ لَأَنْتَ لِوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا

٣٧- وَإِنْ جَلَسَ الغَنِيُّ عَلَى الحَشَايَا لَأَنْتَ عَلَى الكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَا

٣٨- وَإِنْ رَكِبَ الجِيَادَ مُسَوَّمَاتٍ لَأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَا

٣٩- وَمَهْمَا اقْتَضَّ أَبْكَارَ الغَوَانِي فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الحِكَمِ اقْتَضَضْتَا

٤٠- وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الإِقْتَارُ شَيْئاً إِذَا مَا أَنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَا

قال رحمه الله: (لَئِنْ رَفَعَ الغَنِيُّ لِوَاءَ مَالٍ لَأَنْتَ لِوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا) أي: إذا رفع الغني شِعاراً بأنه غنيٌّ فأنت ترفع شِعاراً أفضل من شعاره وهو شعار العِلم، فهو يُبَيِّن للناس أنه صاحب مالٍ، وهم ما يرون منه شيئاً؛ فماله ليس ظاهراً عليه، أما أنت فعِلمك ظاهر عليك؛ فتتكلم بفصاحةٍ، وببلاغةٍ، فعِلمك يظهر، أما ذاك فماله مكنوزٌ غير ظاهر للناس.

ثم قال: (وَإِنْ جَلَسَ الغَنِيُّ عَلَى الحَشَايَا) يعني: إن جلس على الفُرُش المَحْشُوَّة من إسفنج وغيرها مما هي مريحة؛ (لَأَنْتَ عَلَى الكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَا) يعني: فأنت في المنازل العالية جلستَ، أفضل من الفُرُش التي يجلس عليها الغني، واللَّه يقول: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ

آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١]، أكثر من البُسُط؛ درجاتٍ في الدنيا وفي الآخرة.

ثم قال: (وَإِنْ رَكِبَ الجِيَادَ مُسَوَّمَاتٍ) يعني: يريد أن يبين لك: لو رأيتَ غنياً يركب خيلاً مسوَّمةً، ومعلَّمةً، وجميلةً؛ فلا تلتفت لذلك؛ فهي من زخرف الدنيا، فأنت قد ركبتَ ما هو أفضل من ذلك؛ وهو العِلم؛ لذا قال: (لَأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَا) أي: كم من منهجٍ، وعِلمٍ، وفنٍّ ركبتَه واستفدتَ منه؛ فهو شبَّه لك العِلم بالمركوب، تركب هذا الفقه، والنحو، والحديث، والتفسير وهكذا؛ فما تأخذه وتتجمَّل به من العلوم أفضل مما يتجمَّل به راكب الخيل.

ثم قال: (وَمَهْمَا اقْتَضَّ أَبْكَارَ الغَوَانِي) يعني: مهما تزوَّج من النساء - أي: صاحب المال -؛ فأنت قد حصل لك ما هو أفضل منه؛ (فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الحِكَمِ اقْتَضَضْتَا؟) كم معلومةٍ أنت وصلتَ إليها وأخذتَها؟ وكم من فائدة بحثتَ عنها ونلتَها؟ فأنت خير منه، فأين زخرف ومتاع النساء من متعة ولذة وطاعة الإيمان والعِلم؟!

ثم قال: (وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الإِقْتَارُ شَيْئاً) الإقتار هنا: الفقر[١]؛ يعني: أنت ما عليك من الأغنياء، ولا تنظر إليهم، ولا تقل: لماذا أنا فقير؟ ففقرك ما يضرك، يعني: ما يضرك الفقر (إِذَا مَا أَنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَا) فإذا عرفتَ ربك، وأطعتَه، وقربتَ منه، ولم تعصه؛ فهذا هو الغِنى الحقيقي، فالغِنى غِنى الإيمان ونور الإيمان، وليس بكثرة المال.

فالعاقل، الرشيد، الحازم، الذكي، الموفَّق، هو من يجتهد ويبذل غاية جهده في طلب العِلم؛ لأنه أشرف ما يمكن على وجه الأرض؛ لأنَّ النبوة انقطعت، فلم يبقَ إلا ميراث النبوة، فمن قرُب لأخذ ذلك الميراث فهو أفضل ما أوجده اللَّه عز وجل.

---

(١) لسان العرب لابن منظور (٥/ ٧١).

٤١- فَمَاذَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ إِذَا بِفِنَاءِ طَاعَتِهِ أَنَخْتَا
٤٢- فَقَابِلْ بِالقَبُولِ صَحِيحَ نُصْحِي فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرْتَا
٤٣- وَإِنْ رَاعَيْتَهُ قَوْلاً وَفِعْلاً وَتَاجَرْتَ الإِلَهَ بِهِ رَبِحْتَا

قال رحمه الله: (فَمَاذَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ) أي: فماذا عند اللَّه لك من جميل في جنات النعيم، كما قال سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، وقوله عليه الصلاة والسلام في وصف الجَنَّة: «فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١)، فكل ما يخطر في قلبك في نعيم الجَنة موجود، بل هناك أفضل منه؛ كما قال سبحانه : ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١].

ومن النعيم: إذا رأى أهل الجَنَّة النعيم يَخشَوْن أن يخرجوا من هذا النعيم لِمَا يرون فيها من النعيم المُقيم؛ كما قال اللَّه: ﴿لَا يَبْغُونَ

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم (٢٨٢٥)، من حديث سهلٍ بن سعد الساعدي رضي اللَّه عنه.

عَنْهَا حِوَلاً﴾ [الكهف:١٠٨]؛ أي: إن رأيتم هذا النعيم لا تخافوا فلن يزول عنكم.

لذلك قال: (فَمَاذَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ إِذَا بِفِنَاءِ طَاعَتِهِ أَنَخْتَا)

أي: إذا أنت أقبلت على اللَّه بطاعته.

وقال: (بِفِنَاءِ طَاعَتِهِ أَنَخْتَا)؛ لأن الشخص إذا كان له حاجة عند البشر وهو مسافر يُنَوِّخ[1] ناقته عند باب من يطلب منه دَيْناً أو قرضاً أو حاجَةً ونحو ذلك، فكأنه هنا يقول لك: أَنِخ بجسدك وقلبك عند باب اللَّه واطلب منه الرضوان، وأكثِر من طاعته.

ثم قال: لمَّا نصحتُك؛ (فَقَابِلْ بِالقَبُولِ صَحِيحَ نُصْحِي) يعني: أنا نصحتك فلتكن النتيجة أن تقبل نصيحتي، (فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرْتَا) أي: إن أعرضتَ عن نصيحتي بعدم طلب العِلم ولم تطلب العِلم ولم تلحق بالصالحين ولم تعلو عنهم؛ فإنك قد خسرتَ بذلك.

ثم قال: (وَإِنْ رَاعَيْتَهُ قَوْلاً وَفِعْلاً) أي: إذا أطعتَ ذلك وفعلتَه قولاً وفعلاً، (وَتَاجَرْتَ الإِلَهَ بِهِ) يعني: وإن فعلتَ ذلك - وهو طلب العلم

---

(١) أي: أبركها. المصباح المنير للحموي (٢/ ٦٢٩).

- وأقبلتَ إلى اللَّه عز وجل وعلى طاعته، وتاجرتَ بالعِلم معه سبحانه؛ فهي من خير التجارات عنده عز وجل؛ قال: **(رَبِحْتَا)** فهي تجارة رابحة معه سبحانه وهي طلب العِلم.

فكأنه يقول لك: استمر في طلب العِلم فهي تجارةٌ رابحةٌ وعاليةٌ، وسوف تذوق نعيمها ولذتها يوم القيامة.

٤٤- فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا

٤٥- وَغَايَتُهَا إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا كَفَيْئِكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إِنْ حَلَمْتَا

٤٦- سُجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَا

٤٧- وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا مِنْهَا طَعِمْتَا

٤٨- وَتَعْرَى إِنْ لَبِسْتَ لَهَا ثِيَاباً وَتُكْسَى إِنْ مَلَابِسَهَا خَلَعْتَا

قال رحمه الله: (فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا)

يقصد بهذا رحمه الله: أن الدنيا لا تساوي شيئاً، ومن هوانها أن اللَّه عز وجل لم يعطها نبيه صلى الله عليه وسلم، فلمَّا خُيِّر بيْن أن يكون عبداً رسولاً أو ملكاً رسولاً؛ اختار أن يكون عبداً رسولاً[١].

فهو يقول لك: الدنيا لا تساوي شيئاً؛ فلا تذهب إلى مالها كما أخبرتك من قبل؛ بالإعراض، والْه عن المال وانصرف عنه، واطلب

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: «جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ، قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، أَفَمَلِكاً نَبِيّاً يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْداً رَسُولاً؟ قَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ، قَالَ: بَلْ عَبْداً رَسُولاً» رواه أحمد في المسند، رقم (٧١٦٠).

العِلم؛ فالدنيا ليست بشيءٍ، فلا تذهب للمال وإنما اذهب لطلب العِلم، لذلك قال: (فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ) لماذا ليست بشيء؟

قال عن حالها: (تَسُوؤُكَ حِقْبَةً) يعني: أحزانها كثيرة وطويلة، (وَتَسُرُّ وَقْتًا) يعني: أفراحها وقت يسير ثم يزول، وأحزانها أكثر من أفراحها.

فلو كانت شيئاً لكانت مليئةً بالأفراح، لكن غالبها مليئة بالأكدار، لذلك قال اللَّه سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، فتكَدَح[١] وتتعب حتى تلاقي اللَّه، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]؛ يعني: مشقة[٢].

ثم قال: (وَغَايَتُهَا إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا) مع أن فيها أحزان، وسرورها قليلٌ، لكن إذا فكَّرتَ في هذه الدنيا وحالها، (كَفَيْئِكَ) أي: مثل الظل يزول بسرعةٍ، فالدنيا سريعة الزوال.

---

(١) أي: تسعى. الصحاح للجوهري (١/ ٣٩٨).

(٢) الصحاح للجوهري (٢/ ٥٣٠).

(أَوْ كَحُلْمِكَ إِذْ حَلَمْتَا) لو حَلمتَ في اللَّيل أنك تملك ملايين الدنيا ثم تستيقظ؛ ليس هناك شيء، فليس لك من حلمك إلا ما في منامك، أما إذا استيقظت فلا شيء، كذلك ليس لك من الدنيا شيء، فهي تزول سريعاً مثل زوال ظِلِّك، ومثل زوال أحلامك التي تراها في منامك.

ثم قال: (سُجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ) يعني: الدنيا سجن المؤمن، كما قال عليه الصلاة والسلام[١]، فأنت مسجونٌ في هذه الدنيا، لكن يقول: يؤسفنا أنك محبٌّ لهذا السجن وللدنيا وللمال فيها؛ لذا قال: (فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَا) فالشخص العاقل لا يُحِبُّ سجنه، وإنما يحب الجَنة التي هو فيها.

فهو يقول لك: اعمل واكدح في هذه الدنيا بالعمل الصالح، واحذر المال، فالمال وإن كان لك منه ما كان فأنت في سجنٍ، فكيف تفرح بالدنيا وزينتها وزخرفها من أجل مالها وأنت في سجن؟! ومن كان في سجن لا يفرح.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه، ولفظه: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ».

ثم قال: (وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ) أي: الدنيا تعطيك ما فيها من خيرات وما فيها من طعام، (وَعَنْ قَرِيبٍ) إذا مِتَّ؛ (سَتَطْعَمُ مِنْكَ) ستأكل منك (مَا فِيهَا طَعِمْتَا) فما أكلتَه فيها هي ستأكله منك.

يعني يقول: إن الدنيا غرَّارة وخدَّاعة لو أعطتك ما فيها من نباتٍ وخضرواتٍ ومالٍ ونحو ذلك سوف تأخذه منك؛ فكأنه دَيْنٌ لك.

وقال: (وَتَعَرَى إِنْ لَبِسْتَ بِهَا ثِيَاباً) يعني: الدنيا على غير حقيقتها، إذا ذَهبتَ إليها وأعطتْك من حالها فأنت تَعرى، حتى لو كان عليك أجمل الملابس؛ لأنَّ الجمال في العِلم والدين.

(وَتُكْسَى إِنْ مَلَابِسَهَا خَلَعْتَا) أي: إذا خلعتَ ثيابها وابتعدتَ عن الدنيا؛ حينذاك تُكسى، وتُجمَّل، وتُثنى، وتُمدح، وينالك التقوى؛ لأن الدنيا مَن قَرب منها عرَّته، ومن بَعُد منها سُتر وأُثني عليه.

٤٩- وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنَ خِلٍّ كَأَنَّكَ لَا تُرَادُ بِهَا شَهِدْتَا

٥٠- وَلَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرَهَا وَلَكِنْ لِتَعْبُرَهَا فَجِدَّ لِمَا خُلِقْتَا

٥١- وَإِنْ هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْماً وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا

٥٢- وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا

٥٣ - فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نِلْتَ مِنْهَا مِنَ الفَانِي إِذَا البَاقِي حُرِمْتَا

قال رحمه الله: (وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ) أي: كل يوم تسمع، بل قد تشاهد (دَفْنَ خِلٍّ) أي: صاحب لك تدفنه، وأنت تَدفِن وتشاهده، (كَأَنَّكَ لَا تُرَادُ بِهَا شَهِدْتَّا) يعني: كأن أولئك هم الذين يموتون وأنت لن تموت!

فهو يقول لك: اعتبِرْ فأولئك يموتون وأنت ستموت بعدهم، فاستعد للقاء اللَّه عز وجل والعمل للآخرة، والاجتهاد بالصالحات والأعمال الخَيِّرَة.

ثم قال: (وَلَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرَهَا) أي: اللَّه عز وجل ما خلقك لتخلَّد في هذه الدنيا، (وَلَكِنْ لِتَعْبُرَهَا) أي: إنما خلقك في هذه الدنيا؛ لأنها معبر وجِسر لأمرٍ آخرٍ وهو الآخرة، فهي مرحلةٌ يسيرةٌ وقصيرةٌ، ومليئة بالأنكاد والهموم والمكائد، ومليئة بالفتن والمصائب؛ فما عليك فيها

سوى الصبر والاستمرار في المسير، فالمسير قصيرٌ، ولأن المسير قصير؛ يجب عليك أن تحافظ على هذا السير حتى تنتهي؛ فهو قصيرٌ وإما جَنَّةٌ وإما نار.

لذا قال: (فَجِدَّ لِمَا خُلِقْتَا) أي: فجِدَّ بالطاعة، والإكثار من العِلم، والتزوُّد بالصالحات، والسعي لرضى اللَّه عز وجل.

ومن أُخلد إلى هذه الأرض ندم؛ لأنَّ هذه ليست مَسكناً، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»(١) فهذه حقيقتها.

ثم قال: (وَإِنْ هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْماً) أي: إذا هُدمت هذه الدنيا وأَعرَضَتْ عنك؛ فأعرِض عنها ولا تُلقِي لها بالاً؛ فإنك لم تُخلق لها.

(وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا) أي: اجعل همك هو الدين، والحفاظ عليه، وأن تضع عليه سِيَاجاً(٢) لئلا يُهدم، أو يُخدَش، أو

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»، رقم (٦٤١٦)، من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما.

(٢) أي: حائطاً. المحيط في اللّغة للطالقاني (٢/ ١٢٧).

يُضرَّ بشيء، أما الدنيا فإن الواجب عليك: الإعراض عنها ولو هُدمت؛ فإنه لا بأس بعد ذلك في هدمها.

قال: (وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا) اللَّه يقول: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

(إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا) أي: إذا كنتَ عامراً لآخرتك فلا تحزن على ما يفوتك من الدنيا، فالدنيا الذي يفوت فيها: إما أمر دنيوي والدنيا أقل من أن تَحزن لأجلها، وإما أن يفوت أمرٌ دينيٌّ فتحزن لذلك، وحزنك لها من أجل الأمر الديني هذا يدل على يقظة قلبك، وأمر الدين الواجب فيه: العمل والسعي، لا أن يُخَلد فيه إلى الحزن والبكاء والإعراض ونحو ذلك.

ثم بدأ رحمه الله يُوَاسِيكَ بأنك لو فقدتَ شيئاً من هذه الدنيا وزهرتها من مالٍ أو منصبٍ أو دراسةٍ أو شهادةٍ ونحو ذلك، أو أُعطيتَ مالاً أو زوجة أو شهادة؛ فلا تَفرح؛ فليس المقصد بذلك فقط، بل إن المقصد أيضاً هو طلب رضا اللَّه عز وجل وعمارة الآخرة؛ لذلك قال: (فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نِلْتَ مِنْهَا) أي: من الدنيا، (مِنَ الفَانِي) يقصد الدنيا، فما تَجمعه في هذه الحياة فانٍ، وذاهب، وزائل.

(إِذَا البَاقِي) المراد: العمل الصالح **(حُرِمْتَا)** فإذا حُرمتَ العمل الصالح؛ فما تجمعه في هذه الدنيا؛ فهو في حقيقته ذاهب وزائل.

***